

تقديم

« ان من يشتمى (او يقول) دون »
« (او قبل) أن يفعل شيئا »

« انما ينتج الطاعون »

— ولیم بلیک —

« حديثنا عن الشيء قبل وقوعه ، يفقدنا

الحماس له » — نزار قباني —

رأيت أن قضية « الفعل » تستهدفها . وتشيرها . هذه المقالات
جميعا . . فجمعتها بين يدي القارئ « المثقف » . . وهى لا تدعى :
معالجة « القضية » من مختلف جوانبها ! ولا تيسر لها العمق
المطلوب . . ! بقدر ما هى مخصصة فى اثارها : متروكا للمختصين
بحثها بحثا اكاديميا مثمرا . . لاسيما ومجتمعنا العربى — على مستوى
الفرد والجماعة — ما زال متخما « قولا » وتجريدا . . وادعاء . .
وعجزا عن شجاعة « الفعل » . . وهروبا من الواقع الى الوان من
التبرير او التأويل ، والتهويل او التقليل — الامر الذى يفقدنا الدقة
والنظام وتحديد الهدف — فنسكن او نطمئن الى من يحاول مغالطتنا
او مجاملتنا — ملاحظا تعظيمنا وتمجيدنا — ونفر منه او نكيل له
الشتائم . ! وقد اتخذنا منه موقفا معاديا ، اذا كان صريحا معنا ،
مخلصا نزبها . . مستهدفا دفعا الى مباشرة « الفعل » .

قد يعطل هذا السلوك بأن اطوار أو حلقات النضج والوعى
بمتطلبات الذات مرتبطة ومتعاونة مع الآخرين ، لم تكتمل في عالمنا،
متأخرة لذلك مرحلة طلب الحماية أو الخوف من مفارقة «الذات» -
لتكون المسؤولية المباشرة عن آثار « الفعل » «والقول» - وتستمر
« التبعية » لأنها من مستلزمات حضارة « القول » لدينا . .

بالرغم من أن لغتنا « العربية » تستوجب الأولوية - في الجملة -
للفعل : « الحدث » نطقا وكتابة على بقية الاصطلاحات الأخرى . .
لكن ينبغي أن لا نفعل - هنا - على أن « البيئة » العربية قديما
هيات ليكون « القرآن » - قولا - معجزة منذ أربعة عشر قرنا .

علوان

القاهرة - الزمالك ١٩٧٦

الكلمة .. البدء والمبدأ ■

أو

دعوة الى « الفعل » ..

« تشير الاصبع الى القمر ، فلا
ينظر الاحمق الا الى الاصبع »
- مثل هندي -

اذا كانت خديعة « التناقض » أو معضلة « الازدواج » .. قد
أرهقت الانسان عصورا متتالية ، بداية من أيام ضعفه وبدائيته ،
فاضطرب باحثا عن قوى عديدة مختلفة - حسب امكانياته المدركة
وبيئته - طالبا الحماية أو القوة بها ... فاستعبده بعضها وفرقه،
بعد ان رآه بعين وهمه أو خياله أو ضعفه .

ونهاية الى أيام قوته الذاتية ، العلمانية .. الحضارية ..

فان هذه الخلفية أو تركة التناقض والازدواج بين « الفعل
والقول » ما زالت أداة تدمير وعائقا دون بناء الحياة الانسانية التي
يريدها - حسب مقاييس العصر وحضارته - لا سيما في « المجتمع
العربي » الذي ما زالت تفرقه الشعارات ، واللافتات والخطب
الرنانة ... وتضعفه الاقليميات الضيقة ... وسيطرة النزعة

■ كتب ونشر المقال في العدد الخاص بمناسبة مرور سنة على تأسيس
« الشعب الثقافي » بالجزائر

وقد اتحد هذا التاريخ بالشروع في تطبيق الثورة الزراعية بالجزائر ١٧ جوان
- يولية ١٩٧٤ .

وكما قال ملاحظ غربي : « ان الجزائر أصبحت المصدر الايديولوجي للعالم
الثالث ، لان ايا من دولة لا تملك هذا المزيج العجيب من الفكر والفعل » .

الفردية ، والخرافات والاولياء الصالحين .. وشتى انواع الوهم والدجل دون شجاعة .. الفعل من اجل التغيير .. !!

وقد ساعد هذا الوضع على تضخم الاضعف عموما لفائدة الاقوى عموما فغدا هذا الاخير يحرص على امتيازاته ويحمي تفوقه وتطلعاته - التى يزداد جوعا لها طبيعيا - بكل ما امكنه من حيل ومن وسائل .. اتباعا لقاعدة : « تنازع البقاء » لا التعاون على البقاء ... وهو ايضا الذى يضع القوالب . وما على الاضعف الا ان يدخلها صامتا ... دون سؤال أو حوار ، لانه بذلك يعرض حياته للخطر - عفوا - ينهى موته البطيء بموت فوري ... !!

ولهذا وجد الجيل المعاصر الحلقة مفقودة بينه وبين اغلب « السلفيات » فأراد أن يكون تعامله معها بحرية وبموضوعية .. حذرا من المزالق والمهاوى والمناهات وأرضيات القش والرمال ... رفضا للانفصال الذى يمنعه من التفاعل مع مضامين العصر وايدىولوجياته المتحررة .. ومستغربا قوالب الحديد الجاهزة التى ساهمت فى خلقها اعتبارات اعتبارية اقطاعية .. ارهاقية .. فوقية باستمرار ، فهى شبيهة بسرير ذلك الطاغية قاطع الطريق « بروكست » فى الميثولوجيا اليونانية ، الذى كان يسلب المسافرين ويعريهم ، ثم يمدهم على سرير من حديد فيقطع أرجلهم اذا كانوا اطول منه ، ويشدهم عليه اذا كانوا اقصر ...

يريد الآخرون - ظلما وعدوانا وانغلاقا - أن يجدوا كل شىء فى الماضى !!! وكأنهم ينفون عن الانسان ، التطور الخلاق ، عبر العصور المتلاحقة ارتباطا بظروفه وبحاجياته المتجددة .. فيريدون له « الدائرة المغلقة » أو العجز عن الفعل والخلق ... قربانا لواقع لم ينجزه ولا عانى ظروفه الاجتماعية الحضارية وملابساته .. ولهذا سوف لن يعثر فيه : لا على ، ولا بحلول لمشكلاته ، لان الواقع -

كما يقول « غارودي » - : ... ليس معطى جاهزا ، بل مهمة تنجز ، وفي هذا تذكير بأن الانسان خالق ومبدع ... » .

اذن الانسان يصنع واقعه ويكيفه متفاعلا مع البيئة والظروف حسب حاجياته وامكانياته ونداءات العصر ، مرتبطا بالآخرين : « منتما » ... حتى لا يقع له ما لحق بحيوان الديناصور أو بأهل الكهف في العصور السحيقة ...

فالعمل - اذن - أو الحركة عنصر أصيل في انسانيته .. وليس غير الفعل مبررا لوجوده .

واذا اتفقنا على أن هذا « الانفلاق الفكري » أحد العيوب أو « الايونات » التي تطلقها « الرجعية » كلابا مسعورة للملاحقة « الوعى المعاصر » ورميه بشتى التهم والاباطيل - لانه ينطلق من الفعل والواقع والوضوح - لتبقى محافظة على أساليب الادعاء والفوقية ..

فسوف نتفق أيضا على أن لازمة التناقض بين الفعل والقول ، أو السلوك والفكر أو ما في النفس وما في الواقع ... لا يقل عن الاول عارا في تمهيد الطريق « للهزيمة » وفي شتى ضروب الذل والتأخر والمرض والجهل والانشقاق ...

وقد يحق للبعض أن يستنتج : فقدان ثقة الاصدقاء بنا ، واطمئنان الاعداء لعارنا ... أما الآخرون فأمرنا لم يعد يثير انتباههم : لا علينا ولا لنا !

ولعله أسلم لنا أن لا نخاف هذا المنطق - لانه نقد : وهو فتح أكثر وأعمق للبصر والبصيرة - لأن مجتمعا يخاف النقد ، ولا يفهمه فهما سليما ، متبعا بديل ذلك الميل الى المجاملة والاطراء والتجاوز ، والاعتماد على الاخذ بالخاطر .. يؤخر تطوره ، وظروف استقراره الصحيح .

اذن فلنشرع في تغيير ما بأنفسنا من أجل الانسان العربي المعاصر ، لان الواقع المعاش يحملنا مسؤولية ذلك ... فنترك لهذا الانسان حرية بناء الذات متفاعلا مع الواقع ، واذا جاز لنا ان نختار ، فليس امامنا الا التزام الفعل منهج في الحياة واضح انساني ، تحرري ، واع .. يعمق صلاتنا بالآخرين ...

لقد استفادت الحضارة العربية قديما مما جاورها واتصل بها واستولت عليه ، ولولاها لما كان لها ذلك العطاء العظيم « لاوروبا » في عصورها المظلمة .. !

ولكن صلتها بالفعل وبالانسان المناضل ضعف ، وباتت في الغالب ثقافة محنطة حيث انقطعت عنها عملية امداد الانسان بالتفاعل مع الحياة وتطوراتها ... مما جعل هذا الانسان - ايضا - يصاب بالوهن ، ويعجز عن جميع انواع العطاء تقريبا ...

وراح يدور في دوائر مغلقة حول ذاته وحول الاشباح .. فامتلا بؤسا ! اذ وجد بين يديه « اقفالا » بدون مفاتيح ، « ركاما » من القول - غالبا - لم يساعد على الاتصال بالواقع ولا انطلق من الفعل بقدر ما كان هروبا منهما معا ... وامتدت زمنيا العضلة الانفصالية : بين القول والفعل ..

واذا كنا سنجد عمر العصور : هناك صراع بين الماضي والحاضر ناشئ عن التناقض بينهما والتخالف لان عمليات التطور لا تتوقف بالنسبة لشتى ضروب الحياة ، وان السابق - غالبا - يأبى التسليم لللاحق . لكن هذا الاخير يتشبه بحقوقه مستندا الى تجربته الخاصة وخبرته : ارادة في التغيير وهو شكل من اشكال التعبير عن الذات والواقع ... واتصال بهما ، وأميل الى اختيار هذا المثال وهو :

ان الابن « ابراهيم » ثار على ابيه رافضا بيع « الالهة » الحجرية
بعد ان اكتشف زيف ما قيل له تجاه الفعل والواقع .. والحقيقة ..

ان هذه الاصنام التى ستبيعها والتى نعبدھا ، تضر وتنفع . !

وانقضت مدة و ابراهيم يبيع هذه الاصنام ، منتظرا علامات
ضرھا او نفعھا ! وذات يوم وقع منها صنم على الارض فانكسر !!!

عندئذ تيقن ابراهيم وثبت لديه زيف الادعاء متسائلا لماذا
لم ينفع هذا الصنم نفسه ! لماذا لم يمنع هذا الاله الكسر عن
ذاته ؟ !

ووقع لابراهيم ، ماوقع .. لا يهمننا البحث فيه الآن ! ولا يهمننا
الحديث عن الطريق الذى سلكه بعد ذلك - كما تروى القصة -
فهو مرتبط بعصره وبأوضاعه الاجتماعية والحضارية آنذاك ...

وانما الذى نريد أن ننتهى اليه : الكلمة .. البدء والمبدأ
وهى ليست غير « الفعل » او « الخلق » كما وردت فى « سفر
التكوين » بالتوراة (١) .

وكما اهتمت اللغة العربية فأعطت الاولوية للفعل فى الجملة .

وكما تتجه « الكلمة » فى اللغة الصينية نحو التعبير عن الفعل
المباشر بالدرجة الاولى وتضع التفكير المجرد فى الدرجة الثانية ...
فهى ليست مجرد دلالة تشير الى مفهوم مجرد نتيجة للتجريد

(١) انظر سفر « التكوين » الاصحاح الاول : « فى البدء خلق الله السموات
والارض .. » .

وللتعميم المنطقيين ، بل ان الكلمة هي احياء لمجموعة غير محددة من الصور الفاعلة . . فان الطابع الذي تغلب عليه صفة التجسيم العملى ، هو الغالب على لغة التخاطب والكتابة الصينية (١) .

— الجزائر ١٩٧٣ —

(١) كتاب : إيديولوجيات اليسار الجديد ص ١٦ ، الدكتور الياس فرح -

بيروت .